رجال التصوف الإسلامى
هم رجال السنة المحمدية

للاستاذ طه عبد الباقى سرور

سؤال طائر حائر على الشفاه ، يتردد كل يوم فى مسمع الحياة ، سمعته من الناس على اختلاف ألوانهم وصورهم وثقافاتهم ، ماهو التصوف ؟ وما هى رسالته ؟ وما هى حقيقته ؟ وما مكانه من كتاب الله ، وسنة نبيه ؟

وهل يصلح التصوف لحياتنا الحاضرة ، حياة القوة والبأس والصراع ، والتفاخر بالظفر والناب !؟ وهل يستطيع التصوف ان يمشى تحت ظلال تلك الحضارة السامقة الشامخة ، بما فيها من ايجابية عملية ، ونشاط وحركة خاطفة .

ثم أشاهد ابتسامات على الشفاه ، تحل مكان السؤال الطائر الحائر ، ثم يعقب الابتسامات أحاديث فيها تهكم خفى ، وفيها اشفاق جلى وغير جلى ، وفيها ترديد لكلمات من لهو الحديث ، عن التصوف الزاهد الخانع المعتزل المتهالك ، الذى لا يصلح لعصر الذرة والصاروخ ، ولعصر النور والمعارف المادية ؟!

ثم يعود الى الشفاه ، السؤال الطائر الحائر ، عن التصوف وأهدافه ورسالته ، وصلته بالكتاب والسنة .

وكنت أعجب من هذا السؤال ، ويشتد تعجبى اذ أسمعه من رجال على حظ كبير من العلم ومن المعرفة .. !

وكان سر عجبى ودهشتى ، ان الحياة الاسلامية ، حياة روحية خالصة لله ، لانها حياة صاغها كتاب الله ، وصورتها لنا حياة رسوله صلوات الله وسلامه عليه .

والقرآن الكريم يصبغ الوجود البشرى كافة ، ويسبغ على النشاط الانسانى على تعدد ألوانه وصوره وغاياته الطابع الروحى ، والحركة الروحية ...

والرسول صلوات الله عليه ، فى هديه ، وحربه وذكره ، وما يتناول من شئون الحياة ، وما يدير من شئون الرسالة ، كان الصورة الكاملة للحياة الروحية الكاملة ..

ان التصوف فى الاسلام ، ومن الاسلام ، كالنور فى العين ، والسمع فى الاذن ، والحس فى الجسد ، شىء لا يجهل مقامه ، ولا يخفى دليله ولا يمكن ان يتوارى أثره وهديه ورسالته ..

انه القلب والبصيرة ، والاخلاص فى العقيدة ، والنية الصالحة ، المعبرة عن حقائق الاعمال ، والصراط المستقيم الذى بعثت به الرسل ، والتربية الروحية التى أنجبت وأوجدت تلك القوة السحرية التى بعثت نصف مليون عربى .هم كل سكان الجزيرة فى فجر الدعوة ، بعثتهم لخلافة الارض ، وهداية الانسانية ..

انه شعار بدر ، وتهليل أحد ، ونصر حنين ، انه بيعة الرضوان تحت الشجرة المباركة ، انه العقد الذى بين الله وكل مؤمن ، ان يبيعه الروح والمال والولد والزوجة ، والمسكن الطيب ، والتجارة الرابحة ، والجاه العريض ، يبيع كل هذا ، فى مقابل رضوانه ، واعلاء كلمته ، وجنات لايبلى نعيمها ، وجوار كريم ، ومقام محمود ..

انه الحس والشعور والضمير والذوق والشوق والحب ، انه النجوى والمشاهدة وعبادة الله اليقظة الحية المدركة ..

انه حياة الرسول ، وحياة صحبه ، وحياة المؤمنين الذين اجتباهم ربهم واصطفاهم ، خيرة من خلقه ، وأعلاما فى عباده ، حنفاء قانتين لله ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالاسحار هم يستغفرون . وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون .

انه سر تلك البطولات التى تلألأت على جبين الدنيا ، انه روح تلك الحياة الايمانية المشرقة بنور ربها . انه المعانى العالية التى صنعت عباد الرحمن ، الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ، ثم لا يغفلون لحظة عين ، عن مقومات الحياة ، وسنن الوجود، ورسالة الاسلام ، جهادا مرا ، وحفاظا صعبا ، وكفاحا خالدا ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وتكون العزة لكل مؤمن ، والقوة لكل مسلم ، والسيادة للرسالة التى جاءت لتخرج الناس من الظلمات الى النور ..

لقد وجد التصوف الاسلامى مع أول كلمة من كتاب الله ، مع أول كلمة نطق بها ، أمين السماء ، لامام الانبياء ، فى غار حراء : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

اقرأ باسم ربك ، وابدأ كل عمل باسم ربك ، واتخذ اسم ربك شعارا ودسارا ، وبركة وعونا ومددا .

فالله سبحانه جل جلاله ، هو الخالق المعبود وحده لاسواه ، والله تبارك وتعالى ، هو الذى علم الانسان وهداه وألهمه وأودع فيه أنورا وأسرارا وقوى ظاهرة وباطنة ..

هذه هى العلاقة بين الله وعبده ، وهذه هى صورتها القرآنية ، عبودية وخضوع ، والهام وتعليم وامداد ، وحول هذه العلاقة ، وحول هذه الصورة ، جال التصوف الاسلامى ، وترقرت ألحانه ومواجيده وأذكاره ، وفيوضاته والهاماته وأسراره ..

والانسان ، هذا المعجز فى خلقه ، العظيم بروحه وقلبه ، الهابط بشهواته ونزواته ، الذى خلق امشاجا ليبتليه ربه ، وليجاهد حتى يبلغ سموه ومجده ..

هذا الانسان الذى يتقلب فى وجوده بين الروح والجسد ، ويتشكل فى حياته بمختلف الالوان والصور ، لا يعصمه الا الايمان ولا تسمو به الا الطاعة الخالصة لله .

انه ليطغى ان رآه استغنى ، واذا مسه الضر دعا ، صورة خالدة مشاهدة فى الانسان ، فى كل زمان ومكان ، الا من رحم ربك ، ومن اهتدى الى الطريق الربانى ، والمنهج الروحى ، الذى يزكى النفس ، ويطلق النور فى القلب ، ويعصم الجوارح ، ويقيم رقابة دائمة عالية على أفعاله وأعماله .

ان الى ربك الرجعى ، وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، والعاقبة للتقوى ، ولمن سلك سبيل الهدى ، وذكر ربه على بساط الحب والنجوى .

ان الى ربك الرجعى ، هذا هو شعار التصوف وآيته وحجته ، ولهذا صعد أعماله كافة الى ربه ، واتجه بقواه كافة الى خالقه ، واستهدف فى وجوده ، تلك الغاية ، لقد استمع الى هذا الانذار الربانى فلم يتحول بصره طرفة عين عن سيده ومولاه .

ذلك هو مطلع الوحى ، ومشرق الدعوة ، مطلع روحى ، ومشرق صوفى ، وعلى هذا المنهج سنحدثك ، وسنجيب عن السؤال الطائر الحائر على الشفاه ، عن التصوف ورسالته فى الحياة ، ومكانته من كتاب الله ، ومقامه من هدى نبيه ومصطفاه ، والى لقاء فى الاعداد القادمة باذن الله ، وعلى نور من رضاه .

طه عبد الباقى سرور